الفصل الثالث

رواية شعر صراع الكفر والإيمان

انتهى بنا الحديث في الفصل السابق إلى أن شعر الأغراض الجاهلية العامة مرخص روايته، مباح تذاكره وتداوله، في حدود المستحب من القيم الخلقية والفكرية، والمباح السالم من الفحش والكذب، وما عدا ذلك محظور روايته اختياراً لترويج الفتنة والإغراء بها، أما ما كان اضطراراً للشاهد والمثل فالراوي حاك، وليس على الحاكي شيء، ولكن يحسن أن يكون له موقف إيجابي مما يرويه، بالتعقيب على الفاسد، والإبانة عنه، استبراءً لدينه ونفسه.

غير أن الصراع الذي طال أمده بين الكفر والإيمان طوال اثنين وعشرين عاماً من لدن البعثة حتى عام الوفود سنة تسع للهجرة، اتخذ الشعر عاملاً فاعلاً في التحريض على الإسلام من جهة المشركين، أو الدفاع عنه من جهة المسلمين.

وحمل هذا الشعر في منطلقاته الأساسية عمق العداوة الدينية بين قريش ومن عاضدها من القبائل وبين المسلمين مهاجرين وأنصاراً، ثم ما فتىء أن جرى في محاور اجتماعية؛ قبلية وخلقية، ذماً بالمثالب والمعائب، والأحساب والأنساب، إذ لم يكن لقريش في هذا المجال من أسلوب غير الانتقاص والهجاء والإعابة بالآباء والأمهات. ومع أن الشعر الإسلامي سلك هذا السبيل اضطراراً حيث فرضته المناقضة وتقاليدها معنى ومبنى، فإن الزراية على قريش بالكفر وتهديدها بوعيد الله لهم بجهنم وعذاب النار وما إلى ذلك من أساليب الدعوة ترهيباً أو ترغيباً، ظلت خطاً مميزاً في هذه النقائض سواء عند من اختص بذلك مثل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أو من

غلب عليه التعيير بالـوقائع والأيام والمعائب والمآثر مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك رضي الله عنهما.

وخـاض في هذه النقـائض من قريش أبـو سفيان بن الحـارث، وعبـد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وأبو عزة الجمحي، وهبيرة بن وهب المخزومي[1]، وساندهم من شعراء القبائل أمية بن أبي الصلت في رثائه قتلى بدر، والأسود بن يعفر في الإشادة بانتصار قريش في أحد، والعباس بن مرداس السلمي. ومن شعراء اليهود كعب بن الأشرف، وجبل بن جوال الثعلبي، وسماك ومرحّب. ومن النساء هند بنت عتبة، وقتيلة بنت الحارث، وصفية بنت مسافر[2].

القرآن الكريم ورواية شعر الصراع

ولما كان لهذا الشعر قوة عملية طلبية جاء وصفه في كتاب الله بلازمه من الغواية، قال تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظُلموا، وسيعلم الذين ظَلموا أي منقلب ينقلبون﴾[3]، لأنه يحرك نفوس الناس حركة الكراهية أو الحب أو الانفعال بلا علم أو تصديق.

وأدرك ابن عباس رضي الله عنه شمول الآيات الكريمة لدور راوية الشعر وخطره المؤثر في المجال الذي يتحرك فيه فقال: «الغاوون: هم الرواة...»[4]، وروي عنه أيضاً: «أن الآية نزلت في شعراء المشركين؛ عبد الله بن الزبعرى، وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحي، وأمية بن أبي الصلت، قالوا:

---

(١) انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٣٣٧، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٧.

(٢) انظر ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٦٠، ٣/ ١٠٠٤-١٠٠٦، ١٠٩٣.

وأحمد الشايب: تاريخ النقائض ١١٥-١١٦ و د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي ص ٥٠.

(٣) سورة الشعراء: آية ٢٢٤-٢٢٧.

(٤) الطبري: جامع البيان ١٩/٧٨ والزمخشري: الفائق ٣/١٣٣.

نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم، وهم الغاوون الذين يتّبعونهم»[1].

ولا شك أن هذا الفهم ملحوظ فيه عموم الغواية دون خصوصها، فالله سبحانه وتعالى لم يخصص بعض الغواة دون بعض، بل شمل جميع أصنافهم من سفهاء الناس والشطار والشياطين وعصاة الجن في تبعية شعر المشركين[2].

وهجاء المشركين للمسلمين ظلم، لأنه صدى جحودهم بآيات الله، وتكذيبهم ببيناته التي أنزلت ﴿وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون﴾[3] ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وهو يدعى إلى الإسلام﴾[4] ولذلك رصدت الآيات سوء المنقلب للمشركين المتعاملين بهذا الهجاء، فقد توعدهم الله بقوله: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل متعلقه[5].

وعلى الرغم من أن (الذين ظلموا) فيها إطلاق وتعميم شامل للشعراء وغيرهم من أهل مكة ومن المشركين وكل ظالم، فإن الآيات تمنح الشرعية لانتصار الشعراء المسلمين ممن هجاهم واعتدى بالقول على عقيدتهم، حيث «أرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرض لهم»[6] من غير اعتداء ولا زيادة، كما تشير إليه قراءة بعضهم «وانتصروا بمثل ما ظلموا»[7] ويوجه إليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم للشعراء المسلمين، فعن عمار بن ياسر قال: «لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «قولوا لهم كما يقولون لكم» ولقد رأيتنا

---

(١) الألوسي: روح المعاني ١٤٦/٢١.
(٢) الطبري: جامع البيان ٧٨/١٩.
(٣) سورة العنكبوت: آية ٤٩.
(٤) سورة الصف: آية ٧.
(٥) الألوسي: روح المعاني ١٥٢/٢١.
(٦) ابن عبد ربه: العِقد الفريد ١٤٥/٦.
(٧) المصدر نفسه ١٤٧/٢١.

نعلمه لأهل المدينة»[1].

وربما توجه استنباط الشوكاني وهو بصدد تفسير آيات الشعراء إلى أن رواية شعر المشركين قد تصل إلى الحرام، ورواية شعر المسلمين في هذا الصراع فيها درجة الواجب أو المندوب إليه، يقول: «واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير إلى قسم الواجب، فإن الانتصار للحق وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر الله القيام به»[2].

على أن بعض الفضلاء ذكر أن ما يحرم إنشاؤه قد لا تحرم روايته، ولا شك أن ذلك مقيد بما خلا من الفحش والخنا، وألّا يكون فيه لمسلم أذى حياً أو ميتاً، وأن تدعو إليه حاجة من علم أو دلالة[3].

الرسول صلى الله عليه وسلم ورواية شعر الصراع

استنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم همة شعراء المسلمين في الدفاع عن الإسلام وأهله، حين رأى مشركي قريش يذيعون أشعارهم في الصد عن سبيل الله، والتحريض على المسلمين، وإجهاض فاعلية حركة الدعاة الذين كان يبعث بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل. فقد روي أنه قال للأنصار: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء»[4].

وكان حرصه عليه الصلاة والسلام شديداً على أن يؤدي شعر المسلمين غايته على الوجه الأتم في إحباط عتو المشركين ودحض افتراءاتهم، ولذلك فهو ينتخب الشاعر

---

(١) قال الهيثمي: رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني ورجالهم ثقات. (مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) الشوكاني: فتح القدير ٤/١٥١.

(٣) الألوسي: روح المعاني ٢١/١٥١.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ٤/١٣٧.

الفحل والشعر المتين ليكون شافياً في سيرورته والنيل من حركة قريش بين القبائل، ففي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل» فجاءه علي بن أبي طالب فصرفه، ثم عبد الله بن رواحه فلم يعجبه هجاءه، واستحسن بعد ذلك ما قاله كعب بن مالك، غير أنه رضي عمّا أنشده حسان فقال: «لقد شفى واشتفى» ودعا له بالتأييد بقوله: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»[1].

وفي حمى هذا الحرص على أن يظل طابع هذه المنافحة دينياً قائماً على الدعوة إلى الله، جاء توجيه الرسول عليه الصلاة والسلام لكعب بن مالك، «فعن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو ينشد ويقول:

ألا هل أتـى غسـان عنـا ودونـهـم ... من الأرض حرق حولـه يتـتـبـع
تجـالـدنـا عن حرمنـا كُلُّ فَخْمَـةٍ ... كردف لهـا فيهـا القـوابس تلمـع

فقال النبي: «لا يا كعب بن مالك، فقال كعب: تجالدنا عن ديننا كل فحمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم يا كعب»[2].

ونال هذا الشعر منزلة رفيعة القدر، عالية الدرجة، إذ عده رسول الله صلى الله عليه وسلم نوعاً من الجهاد فيقول: «إن المسلم يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»[3]. وفي هذه المنزلة تعزيز لندب روايته وفضل حفظه ونقله.

ومنح هذا الشعر شرفاً معززاً لروايته، ومتحسساً لمواضع سيرورته، وذلك حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بإنشاده في مسجده، فعن عائشة رضي

(١) انظر ما رواه الإمام مسلم ١٦/ ٤٨-٤٩.
(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٤ قال: رواه الطبراني وإسناده حسن.
(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦/٤٦.

الله عنها قالت: «وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان منبراً في المسجد ينافح عنه بالشعر عليه»[1].

وبهذا التعزيز للقيمة الموضعية المكانية والزمانية، جاء تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم لشعر ابن رواحة وهو يلتمس له انتشاراً وتأثيراً في قريش، فقد أورد النسائي تحت باب جواز إنشاد الشعر في الحرم وبين يدي الإمام وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا بن رواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: «خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»[2].

وبلغ هذا اللون من الشعر غايته في إيقاع الخوف والرعب في قبائل العرب التي حملته الرواية إليها، وأصاب أسلوب التهديد غرضه في الدعوة، فأدخل الوهن في قلوب المشركين، فدخلوا في الإسلام بتأثيره. روى ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره قد شنق ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرحل، إذ قال يا كعب بن مالك: احد بنا! فقال كعب:

قضينا من تهامة كل حق ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا

---

(١) رواه الطبراني وإسناده حسن (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ١٢٤).

(٢) رواه النسائي: سنن النسائي ٥/ ١٥٩-١٦٠ والترمذي: باب الأدب ومسند أحمد ج ٦ حديث ٧٢.

فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل»[1].

ويقال إن دوساً أسلمت فرقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم»[2].

ويظل هذا التأييد النبوي لشعراء المسلمين وشعرهم في دفع أذى قريش والمتحالفين معها مرحلياً زمن إقامة دولة الإسلام، فإذا ما فتحت مكة، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفراداً وأفواجاً وقبائل عام الوفود، فإن هذا الشعر، خاصة ما كان منه مؤذياً للآباء والأنساب، أضحى مطلوباً الحياد عنه، ففي حديث محمد بن علي الباقر الذي أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: «لا تسبوا هؤلاء، فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم» وأخرج النسائي عن ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فنظمه... وفيه «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا»[3].

* * *

وكان شعر الهجائين من المشركين تصل روايته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن طريق الصحابة الذين لم يكونوا ليكتموه شيئاً منه، فما يؤذيه يؤذيهم، وما يؤذيهم فإنه يؤذيه، وما كان أحدهم ليغضي عن مساس بدين الله الذي نذروا أنفسهم وما يملكون من أجله، فمن ذلك قصيدة كعب بن زهير التي بعث بها إلى أخيه بجير يلومه على اتباعه لدين محمد صلى الله عليه وسلم ويحرضه على الردة عنه، قال كعب بن زهير:

---

(١) في رواية أخرى: «لهو أسرع فيهم من السهم في غلس الظلام» (البيهقي: المحاسن والمساوىء ص٢٥٣).

(٢) الحصري القيرواني: زهر الآداب ٦٥/١ والبيهقي: المحاسن والمساوىء ٢٥٣.

(٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين وحاشية التحقيق ١٥٢/٣.

من مبلغ عني بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قُلْتُ بالخيف هل لكا
شربت مع المأمون كأساً رويّة ... فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء وَيْبَ غيرك دلَّكا
على خلق لم تُلْف أمّاً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسفٍ ... ولا قائلٍ إما عثرت لَعاً لكا

فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشده إياها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع «سقاك بها المأمون» : «صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون» ولما سمع «على خلق لم تلف أماً عليه ولا أباً عليه» قال: «أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه»[1].

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوبان مؤتلفان في التصدي لشعر المشركين في هذا الصراع ومنع روايته وانتشاره.

الأول: إهدار دم شعراء المشركين

وكان ذلك جزاءً وفاقاً لما نظموه من هجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أو تحريض على الدعوة الإسلامية، فقد أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دم عدد من الشعراء، ونُفِّذ القتل في بعض منهم، فممن أمر بقتله كعب بن الأشرف اليهودي الذي قدم مكة وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدر، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم[2]، وممن كان يشبب بهن أم الفضل بن العباس، وأم حكيم ابنة عبد المطلب[3]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشر، وقوله الأشعار، ثم قال: من لي بابن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٣٤٥-١٣٥٥.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٨١٣، ٨١٧.
(٣) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ق ١/١٥١ تحقيق د. محمد الهاشمي.

الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة أنا لك به يا رسول الله، وأما أقتله... فقتله[1].

ومنهم أبو عزّة الجمحي[2] الذي أُسر يوم بدر كافراً، فطلب من رسول الله أن يَمُنَّ عليه فقال عليه الصلاة والسلام على أن لا تعين عليّ ـ يريد شعره، قال: نعم، فعاهده وأطلقه، فلما كان يوم أُحد دعاه صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وأغراه، وكان محتاجاً، فخرج فسار في بني كنانة فحرّضهم، ثم وقع في الأسر يوم أُحد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يلسع المؤمن من جحر مرتين، فقتله[3].

وفي فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل نفر من المشركين وإن وجدوا تحت استار الكعبة، منهم من كانت جريمته الردة عن الإسلام فضلاً عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عبد الله بن خطل وقينتاه فرتنى وصاحبتها وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما عبد الله فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، وأما قينتا ابن خطل فقتلت فرتنى وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فأمنها[4].

وسير رسول الله صلى الله عليه وسلم سالم بن عمير في سرية لقتل أبي عَفَك اليهودي، وكان قد ظهر نفاقه وبدا في شعر نظمه بعد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم للحارث بن سويد بن صامت فقتله سالم[5].

ونظمت عصماء بنت مروان شعراً تعيب فيه الإسلام وأهله، وتحرِّض فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله حين بلغه ذلك «ألا آخذ لي من ابنة مروان» فقتلها عمير بن عدي الخطمي[6].

---

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع ١/ ١١٠.

(٢) هو عمرو بن عبد الله بن عمري بن وهب بن حذافة بن جمح.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٣، ٢٥٥.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٢٥١ـ١٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ١٤٩٣.

(٦) المصدر نفسه ٤/ ١٤٩٤ـ١٤٩٥.

وجاء كعب بن زهير تائباً يعلن إسلامه ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجا من الموت بعد أن أهدر دمه، وهرب عبد الله بن الزبعرى إلى نجران فلم ينجه من الخوف، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تائباً يمدحه[1]. أما هبيرة بن وهب الذي كان شاعراً من رجال قريش المعدودين، شديد العداوة لله ولرسوله، فهرب إلى نجران أيضاً فأخمله الله وأبعده ودحقه حتى صار الناس لا يبالون به، وأقام بها حتى مات بها كافراً[2].

وعلى الرغم من عنف العقاب الذي وقع بأصحاب هذه الأشعار الهاجية لرسول الله والمسلمين أو المحرِّضة على الإسلام، فلعل فعله عليه الصلاة والسلام دليل على منع رواية هذه الأشعار في مرحلة من مراحل إقامة شرع الله وترسيخ بناء الدولة الإسلامية آنذاك.

الثاني: النهي عن رواية بعض القصائد

روي من أكثر من وجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية بعض القصائد، منها ما يتعلق بالصراع بين قريش والمسلمين تعلقاً مباشراً، ومنها ما كان تعلقه به تعلقاً غير مباشر من حيث مقتضى الكفر ولوازم الإيمان.

فمن الأحاديث المروية في هذا المجال حديث أبي هريرة الذي رواه الإمام الحافظ المحدث الفقيه أبو ذر بن محمد بن مسعود الخشني (٥٣٣ ـ ٦٠٤هـ) قال: حدثنا الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي النميري فيما أجازه لنا غير واحد من شيوخنا قالوا: حدثنا الفقيه القاضي الشهيد أبو علي الصدفي هو ابن سكرة عن أبي الفضل محمد بن أحمد الأصبهاني عن أبي نعيم الحافظ قال: حدثنا محمد بن إبراهيم، قال: حدثنا أحمد بن علي قال: أخبرنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: أخبرنا شبابة بن سوّار عن أبي بكر الهذلي، عن محمد بن يسير، عن

---

(١) المصدر نفسه ٤/١٢٦١.

(٢) المصدر نفسه ٤/١٢٦٣ وابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٧.

أبي هريرة قال: «رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلا القصيدة التي أولها:

ألاَّ بكـيت على الـكـرا م بنـي الكـرام أولى الممـادح

وقصيدة الأعشى التي أولها:

عهـدي بهـا في الـحي قد دُرِّعَتْ هيفـاءُ مثـل الـمهـرة الضـامـر[1]»

وجاء الحديث مضطرباً في متنه، ضعيفاً في سنده في رواية البزار وأبي يعلى عن أبي هريرة قال: «رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلاّ قصيدتين للأعشى زعم أنه أشرك فيهما، وفي رواية: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعر الجاهلية إلاّ قصيدتين للأعشى إحداهما في أهل بدر والأخرى في عامر وعلقمة». قال الهيثمي: رواه كله البزار وأبو يعلى باختصار، وفي إسنادهما من لا تقوم به حجة[2].

قلت: هو كما قال الحافظ الهيثمي، فإن في إسناده أبا بكر الهذلي، وهو سلمي بن عبد الله أبو بكر البصري الهذلي، صاحب الحسن واه، وهو بكنيته أشهر[3]. وقال فيه الحافظ بن حجر: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال فيه أبو زرعة ضعيف، وقال أبو حاتم: لين الحديث، يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال النسائي:

---

(١) الحافظ أبو ذر محمد بن مسعود الخشني: شرح السيرة النبوية ١/١٩٨.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٢.

روى هذا الحديث البزار في مسنده بطريقتين، الأول فيه أبو بكر الهذلي وقد ضعفه أهل الحديث وتركوه، والثاني فيه سليمان بن الأرقم وهو متروك الحديث (انظر كشف الأستار ج ٢/٤٥٤).

وذكر طرفاً من الحديث ابن حجر في الإصابة جـ ٢/٤٩٦ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الشكر وابن عوانه في صحيحه.

(٣) ابن حجر: لسان الميزان ٣/٧١.

ليس بثقة ولا يكتب حديثه، وقال علي بن الجنيد: متروك الحديث، وقال فيه علي بن المديني: ضعيف وليس بشيء، وقال مرة ضعيف جداً، وكان عنه يقول: أبو بكر الهذلي إمامنا وكان يكذب[1]، وذكره البخاري في الضعفاء الصغير، وقال الحافظ ابن حجر فيه: متروك الحديث[2].

ورواه الأموي في مغازيه قال: سمعت أبي حدثنا سليمان الأرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عفا عن شعر الجاهلية، قال سليمان فذكر ذلك عن الزهري فقال: عفا عنه إلاّ قصيدتين: كلمة أمية التي ذكر فيها أهل بدر، وكلمة الأعشى التي يذكر فيها الأحوص» قال ابن كثير مضعفاً الحديث بالطعن في أحد رواته: «وهذا حديث غريب، وسليمان بن الأرقم هذا متروك، والله أعلم»[3].

قلت: والحديث من هذا الطريق ضعيف لا يجبر ضعفه أيضاً، ذلك أن سليمان بن الأرقم هذا كما قال الحافظ ابن كثير، فهو ليس بشيء، قال فيه الإمام أحمد فيما رواه عنه ابنه عبد الله: لا يساوي شيئاً، وقال ابن معين: ليس بشيء، ليس يساوي فلساً، وقال عمرو بن علي: ليس بثقة روى أحاديث منكرة، قال البخاري: تركوه، وقال ابن عدي: عامة ما يتابع عليه، وقال فيه ابن حبان: وكان ممن يقلب الأخبار، ويروي عن الثقات الموضوعات.

وعلى ذلك فمن كان بما قيل فيه هذا الجرح فهو عند أهل الحديث لا يحتج به ولا بحديثه.

وللحديث طريق آخر أورده البغدادي عن السيوطي قال: قال وكيع في الغرر عن الزهري: «رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأشعار كلها إلاّ هاتين

---

(١) ابن حجر: التهذيب ١٢/٤٧.

(٢) الحافظ ابن حجر: لسان الميزان جـ ٣/٧١.

(٣) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٣٤٣.

الكلمتين: التي قال أمية بن أبي الصلت في أهل بدر (ماذا ببدر فالعقنقل.. من مرازبة جحاجح) والتي قال الأعشى في علقمة بن علاثة: (شاقتك من قتلة أطلالها)[1].

وإذا كان حديث أبي هريرة قد جمع في النهي قصيدتي أمية بن أبي الصلت والأعشى، فإن حديث محمد بن مسلمة خصص النهي بقصيدة الأعشى في هجاء علقمة بن علاثة دون غيرها؛ روى ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج تحت عنوان شكر الناس من شكر الله[2] قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم حدثنا عبد الله حدثنا سفيان بن محمد المصيمي، ذكر أبو نعيم اسحاق بن الفرات التجيبي (تجيبي كنده) حدثنا أبو الهيثم عن مالك عن أنس عن الزهري عن أبي حدرد الأسلمي أو ابن حدرد الأسلمي قال: قدمت المدينة في خلافة عمر بن الخطاب فأردت الحج، فلما أتيت مكة قلت: اللهم قيض لي رجلاً من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم، كان نبيك يحبه، وكان يحب نبيك صلى الله عليه وسلم، فإذا أنا بغلام أسود على حمار يقود ناقة خلفها شيخ على حماره، فقلت للأسود: يا غلام! من الشيخ؟ قال: محمد بن مسلمة الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وافقت خير رفيق، ونازلت خير نزيل، فتذاكرنا يوماً في مسيرنا الشكر، فقال محمد بن مسلمة: كنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت: أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله عز وجل قد وضع عنا آثامها في شعرها وروايته، فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا حسان لا تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسي هذا، قال: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر، فقال النبي صلى

---

(١) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ٣/ ٤٠١-٤٠٢ ط الخانجي، وأبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ١/ ٢٠٣.

(٢) انظر قضاء الحوائج حديث رقم ٧٤.

الله عليه وسلم: يا حسان! أشكر الناس أشكرهم لله، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني فتناول مني مقالاً، وسأل هذا عني فأحسن القول، فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذاك»[1].

وهذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده أبا الهيثم العبدي (خالد بن عبد الرحمن العبدي، أبو الهيثم العطار) قال عنه الحافظ ابن حجر: مجهول[2]، وقال ابن حبان عنه منكر الحديث، وقال ابن حجر: أتى عن مالك بخبر منكر رواه عنه اسحاق بن الفرات، والخبر المذكور في كتاب قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا وإسناده صحيح ومتنه منكر كما قال المصنف.

وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك من طريق اسحاق بن الفرات عنه (أبو الهيثم) عن مالك عن الزهري عن أبي حدرد الأسلمي، وذكر القصة ثم قال: أبو الهيثم العبدي مجهول، وهذا غير محفوظ عن مالك ولا عن الزهري[3].

وقد ذكر طرفاً من الحديث كل من الزمخشري[4] وابن الأثير[5]، وذكر هذه القصة ابن حجر في ترجمته لعلقمة بن علاثة وقال: وقد رواه أبو عوانه في صحيحه بعد ذكر الحديث، وقال: ورأيت نحو ذلك مروياً عن ابن عباس[6]. قلت: ولم أجد ذلك في صحيح أبي عوانة، ولم أجده عن ابن عباس. ولكن فيما وقفت عليه من طرق رواية الحديث فإنها لا تخلو من القدح بها.

---

(١) روى عبد القادر البغدادي هذا الحديث من طريق أبي نعيم والخطيب وابن عساكر عن محمد بن مسلمة، مع اختلاف في بعض ألفاظ الحديث كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا منه... يا حسان لا تنشدني مثل هذا بعد اليوم، فقال حسان: «يا رسول الله! ما يمنعني من رجل مشرك هو عند قيصر أن اذكر هجاء له» (خزانة الأدب: ٣/٤٠١).

(٢) انظر ابن حجر: لسان الميزان جـ ٢/٣٩٣. (٣) لسان الميزان: جـ ٧/١١٩.

(٤) الفائق: ٢/٢٥٠. (٥) النهاية في غريب الحديث حـ ٢/٤٧٨.

(٦) ابن حجر: الإصابة حـ ٢/٤٩٦.

والخلاصة أن أحاديث النهي عن رواية بعض القصائد (أمية بن أبي الصلت والأعشى) ضعيفة، حيث فيها من الرواة الضعيف الواهي الضعف، والمتروك، ومنكر الحديث، إلاّ أن تعدد طرق رواية الحديث قد يكون فيها إشارة إلى أن له أصلاً، يقول البيهقي: «وإذا روي الحديث من أوجه أخر، وإن كان ضعيفاً، دل على أن للحديث أصلاً»[1].

وعلى ذلك فقد وجد أهل العلم في هذا النهي مجالاً للقول، إذ أن في الحديث ترخيصاً عاماً في رواية الشعر الجاهلي، واستثناءً خاصاً في قصيدتي أمية والأعشى.

أما الترخيص العام فمنسجم وفعل الصحابة والتابعين في رواية الشعر الجاهلي الذي انتهى البحث فيه إلى أن ذلك كان يجري في اتجاهين:

الأول: الالتزام أو الندب إلى الحسن منه مثل شعر الحكمة والقيم الخلقية والفكرية، الذي هو من ضالة المؤمن في طلب ما كان حقاً، والانتفاع به تصديقاً وعملاً.

الثاني: الإباحة في تناشد الشعر الجاهلي وروايته في عموم جنسه دون خصوص نوعه من حيث أن الراوية حاك، ما دام مقصوده الدلالة على العلم بالشاهد والمثل.

وأما الاستثناء الخاص بالنهي عن رواية قصيدتي أمية والأعشى فمتناسب والقول بالمرحلية التي سبقت الإشارة إليها، وذهب إليها بعض أهل العلم. يقول الخشني: «وقال بعض أهل العلم: إنما كان هذا المنع من إنشاد هاتين القصيدتين في أول الإسلام؛ لما كان بين المسلمين والمشركين، وأما إذا عمَّ الإسلام ودخل فيه الناس، وزالت البغض والعداوة، فلا بأس بإنشادهما»[2].

فالنهي عن رواية هاتين القصيدتين مقيد بعلة، فلما زالت العلة زال النهي، تماماً كما هو شأن سجع الكهان، الذي حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على وأده

---

(١) البيهقي: دلائل النبوّة ١/٤٦٦.

(٢) محمد بن مسعود الخشني: شرح السيرة النبوية ١/١٩٩.

بالنهي عنه في قوله لحَمَل بن النابغة الهذلي: «إنما هو من إخوان الكهان» أو «أسجَّاعة كسجع الجاهلية» لارتباط السجع بالكهان الذين كانوا يدَّعون أن مع كل واحد منهم رئياً، افتراء وكذباً ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾[1]، ويربط الجاحظ بين القضيتين الأدبيتين (القصيدتين والسجع) فيقول: «وقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم، وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم». «وكان النهي ظاهراً عن مرثية أمية، وروى الناس شبيهاً بها في هجاء علقمة، فلما زالت العلة زال النهي»[2]

وقد يعزز القول بالمرحلية أيضاً موقف ابن هشام في السيرة من قصيدة أمية بن أبي الصلت خاصة، حيث روى القصيدة لكنه أسقط منها ما كان هجاءً للصحابة رضوان الله تعالى عنهم، قال ابن هشام معقباً على القصيدة: «تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله»[3].

غير أن القول بمرحلية النهي إذا كان متطابقاً ومنسجماً مع قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر، فإنه قد يظل متأبياً على القبول في قصيدة الأعشى في هجاء علقمة؛ لأن الشكر إذا كان سبباً في النهي عن رواية هذه القصيدة حين كان علقمة جاهلياً، فإن النهي ذاته أدعى أن يظل قائماً وقد أضحى علقمة صحابياً مسلماً. على أن في الوقوف على مضمون القصيدتين ما يفسر القول بالمرحلية أو يوجهها.

تخلو قصيدة أمية بن أبي الصلت من الهجاء إذا استثنينا البيتين اللذين أسقطهما ابن هشام، إلا أنها تحريض واضح ضد الإسلام والمسلمين، والتحريض سعي بالفساد، وحث عليه، وترغيب به. إذ تبدأ القصيدة بالبكاء على قتلى بدر، الذين منهم

---

(١) سورة الشعراء: آية ٢٢١-٢٢٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ١/ ٢٩٠-٢٩١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٧٩٠.

الأسياد «مرازبة جحاجح» وفيهم الشيب والشباب «شمط وشبان» يقول أمية[١]:

أَلَّا بَكَـيْتَ على الـكِـرا ... م بَني الكِـرامِ أُولى المَمَـادحْ
كَبُـكـا الـحَـمَـامِ على فرو ... عِ الأَيْكِ في الغُصُنِ الجوانـحْ
... ماذا بِبَـدْرٍ فالـعَـقَـنْـ ... ـقَـلِ من مَرَازِبَـةٍ جَحَـاجِـحْ[٢]
... شُمْطٍ وشُبَّـانٍ بَهـا ... لِيلٍ مَغَـاويرٍ وَحَـاوِحْ[٣]
ألا تَرَوْنَ لِمـا أرى ... وَلَـقَـدْ أَبَـانَ لِكُـلِّ لامِـحْ
أن قد تَغَـيَّرَ بَطْنُ مَكَّـ ... ـةَ فهيَ مُوحِشَـةُ الأَبَـاطِـحْ
من كُلِّ بِطْرِيقٍ لِبِـطْرِيْقٍ ... نَقِـيِّ الـلَّونِ واضِـحْ

ويمضي في تعديد مناقبهم، وتأبين صفاتهم، من سيادة ورفعة شأن، وكرم عطايا وهبات يمنحونها، حتى غدوا مميزين في هذا المجال:

لكـرامـهـم فوق الـكـرام ... مزية وزن الـرواجـح
كتـثـاقـل الأرطـال الـقسـ ... ـطاس في الأيدي المـوائح[٤]

ثم ينتقل بعد وقفته الطويلة في مدح رجال قريش إلى التحريض على المسلمين، بالإغارة عليهم ودحرهم بما لديهم من عدة وعتاد، معرضاً أثناء ذلك بمن خذل قريش في معركة بدر:

خذلـتـهـم فئـة وهـم ... يحمـون عورات الفضـائح
... لله در بنـي علـ ... ـيٍّ أيم منـهـم ونـاكـح

---

(١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٧٧٦-٧٩٠.

(٢)، (٣) الجوانح: جمع جانحة وهي المائلة، العقنقل: الكثيب المنعقد من الرمل، المرازبة: الـرؤسـاء، والجحـاجح: جمع جحجح وهو السيد، المغاوير: كثيرو الغارة على الأعداء، الوحاوح: الحديدو النفس الأقوياء.

(٤) القسطاس: الميزان الكبير، والموائح: التي تتهادى بينها لثقل ما تحمله.

إن لم يغيروا غارةً شعواء تُجْحِرُ كل نابح[1]
بالمقربات المبعدا ت الطامحات مع الطوامح[2]
مرداً على جرد إلى أسد مكالبةٍ كوالح

وعلى الرغم من أن عاطفة الحزن واللوعة في القصيدة ذهب بها ثقل ألفاظ التهويل والإثارة وغرابتها وخشونة جرسها[3]، وأن نغمة الاعتداد وعلو نبراتها غلبت أنّة الحزن ورقة رنينها، فإن التحريض ظل خطّاً نامياً في القصيدة سواء في طلب البكاء على القتلى أو في التذكير بمكانة قريش وقتلاها، أو في التعريض بمن خذلها، أو في الدعوة إلى الإغارة والانتقام من المسلمين.

والتحريض بالشعر أسلوب عدائي عمل المشركون على توظيفه في إحباط الدعوة الإسلامية في خطاها الأولية، وكان المسلمون يخشونه آنذاك، ولذلك حفز الرسول صلى الله عليه وسلم الشعراء من أصحابه لدحض افتراءات المشركين، وإعابتهم بالهجاء، وكان شعراء الدعوة قد أخذوا بأسلوب البلاغ والدعوة إلى الدين الجديد، من خلال تخصص كلٍّ منهم بجانب فيما دار من مناقضات بينهم وبين قريش ومن دار في مدارها.

وإذا زدنا على ذلك أن أمية بن أبي الصلت ثقفي وقتلى بدر قرشيون، أدركنا مدى خطورة هذا التحريض في التحالف القبلي، واتساع دائرة العداوة والتصدي، وترجح القول لدينا بالنهي عن روايتها جملة آنذاك، على الرغم من خصوص دافعية الرثاء إليها[4].

---

(١) تجحر: تلجئه إلى حجره.

(٢) المقربات: الخيل التي تقرب من البيوت لكرمها، والمبعدات.

(٣) د. عبد الحفيظ السطلي: ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٢٥٨.

(٤) كانت أم أمية قرشية، وهي رقيّة بنت عبد شمس بن عباد بن عبد مناف، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة ممن قتل في بدر وهما ابنا خال أمية. (الإصابة ١/١٢٩).

فإذا تباعد العهد ببدر قليلاً، باعتبار ما تقدم، وغدا كثير ممن شارك فيها قولاً أو عملاً مسلماً، وأصبح من كان مشركاً يرفل مع المسلم بنعمة الله إخواناً، لم يعد للقصيدة شأن في كيان الدعوة، لكن الشأن فيما تضمنته من هجاء لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يهوّن من هذا الهجاء القول بأن النيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان باعتبارهم الشخصي لا الديني، تبريراً لحذف ابن هشام للبيتين اللذين وقع فيهما الهجاء[1]؛ لأن هذا النيل ما كان ليكون لولا التزامهم بالدين الجديد وتلازمهم مع الدعوة تلازماً محا صفاتهم الجاهلية، وغيب ما ورثوه من أدرانها، فلم يعد للنسب أو المكانة القبلية اعتبار خاص في الإسلام إلا بقدر ما يسخر ذلك في خدمة الإسلام وأهله[2].

ولئن كنت لا أرى رأي ابن هشام في إسقاط الراوية بعض ما يروي لفساد أو فحش، إذ يخرجه من تبعة ذلك موقف إيجابي بالتعقيب على ما يروي، فإني أحسب أنه أحسن صنعاً إذ غيب هذا الهجاء فلم يعد متداولاً مذكوراً، فأخرج بذلك القصيدة من دائرة الحرج إلى الإباحة.

وكان من الممكن أن يكون إسقاط ابن هشام بيتي الهجاء في قصيدة أمية دليلاً على فهم متميز بمقصود نهي الرسول صلى الله عليه وسلم في خصوصيته لما فحش من الهجاء، في الجزء دون الكل من القصيدة، لولا منهجه[3] في شعر الهجاء وروايته، الذي يسقط به ما كان هجاءً مقذعاً، سواء أكان صاحبه مسلماً أو مشركاً، إذ نراه يقول في قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه التي مطلعها:

يا حَارِ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مُعَوَّل   عِنْدَ الهِيَاجِ وسَاعَةَ الأَحْسَابِ

(١) د. يحيى الجبوري: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص١٨٦.

(٢) قال صلى الله عليه وسلم: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

(٣) سيأتي تفصيل هذا الاتجاه المنهجي في الفصل الثاني من الباب الثالث.

«تركنا منها بيتاً واحداً أقذع فيه»[1].

ومهما يكن شأن منهج ابن هشام الذي أراد ألّا يكون فيه أحد الشاتمين على حدّ المأثور في القول: «الراوية أحد الشاتمين» فهو يرشد إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عام لكل شعر فاسد، وليس خاصاً بقصيدة أمية وقصيدة علقمة، إذ الترخيص في الأشعار كلها إلّا هاتين القصيدتين تنقضه الدراية. فالفاحش والماجن والمشرك من شعر الجاهلية وهجاء قريش للرسول والمسلمين والدعوة، معان مرفوضة، غير مصرح بتداولها، إلّا بموقف إيجابي عند الإشارة إليها بالحكاية في العلم أو الدلالة.

ثانيها: لا بد من موقف إيجابي للراوية مما يرويه، وما حذف أبيات أمية في هجاء الصحابة إلّا شارة على هذا الموقف.

ثالثها: إن إسقاط ما فحش من المعاني في قصيدةٍ ما مخرج لها من باب الممنوع إلى باب المباح.

ويبقى بعد ذلك السؤال قائماً وهو لماذا كان النهي عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت جزاءً، ولم يكن إهدار دمه عقاباً كما كان شأن غيره ممن حرض على الإسلام والمسلمين؟

وقصيدة الأعشى في هجاء علقمة مطلعها[2]:

شاقتك من قتلة أطلالها ... بالشَّطِّ فالوِتْر إلى حاجر

ورمى الأعشى علقمة بالخنا والفجور بصريح القول:

دعها فقد أعْذَرتَ في حُبِّها ... واذكر خَنَا عَلْقَمَةَ الفاجِرِ

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٧٥.

(2) انظر الأعشى الكبير: ديوانه ١٩١-١٩٣.

ويعمد إلى السخرية من علقمة بالموازنة بينه وبين عامر بن الطفيل:

عَلْقَمَ لا لَسْتَ إلى عامرٍ ... النَّاقضِ الأوتارِ والواتِرِ
سُدْتَ بني الأحوص لم تَعْدُهُمْ ... وعامر سادَ بني عامر
يا عجب الدهر متى سُوِّيا ... كم ضاحك من ذا وكم ساخر
فاقنِ حياءك أنت ضيعته ... مالك بعد الشيب من عاذر
ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر
علقم لا تسفه ولا تجعلن ... عرضك للوارد والصادر
ولست في السلم بذي نائلٍ ... ولست في الهيجاء بالجاسرِ

والذم بالمفاضلة على هذا النحو «من أشد الهجاء وأمضه، ولو أنه شتم وأفحش لعدَّ سفيهاً، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض، فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه، وتكثر من تأويله»[1].

وفضلاً عن هذا الهجاء، وهو أفسد أضرب الشعر في نظر الإسلام، تثير قصيدة الأعشى في علقمة فتنة قبيلة، كانت وئدت بحكم هرم بن قطبة بن سنان، الذي سوى بين عامر وعلقمة بقولته المشهورة: «أنتما كركبتي البعير الأدرم، يقعان الأرض معاً، وينهضان معا، قالا فأينا اليمنى؟ قال: كلاكما يمين»[2].

وجاء الأعشى بعد هذه التسوية يجدد الخصومة، ويبعث المنافره، وقد انفضّ الناس عنها، مغرضاً في نواياه، خبيثاً في مقاصده. والفتنة بعد ذلك قريبة عهد بالإسلام إذ جرت أحداثها بين عام أربعة قبل الهجرة، وأربعة بعدها، فهي متزامنه ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته[3]. ولا شك أن هذه الفتنة شملت بعضاً من المسلمين السابقين إلى الإسلام في هذه الفترة، قياساً على من دخل في الإسلام

(١) د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص ٣٥١.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٣٧.
(٣) د. محمد محمد حسين: ديوان الأعشى الكبير ص ١٨٨.

بعد ذلك، مثل الحطيئة الذي مال إلى علقمة مؤيداً، ولبيد الذي كان مع عامر متحيزاً.

والباحث عن خطر هذه القصيدة في إثارة فتنة قد وئدت، وإحياء عصبية قد أخمدت، يدركه فيما ورد على لسان هرم بن قطبة، وقد سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أرأيت لو تنافرا إليك اليوم، أيهما كنت تنفر؟ يعني علقمة بن علاثة أم عامر بن الطفيل. فقال: يا أمير المؤمنين! لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة»[1].

بهذه الأبعاد يصدق القول بمرحلية النهي عن رواية هذه القصيدة، ويكون الجمع بينها وبين قصيدة أمية في قران قويماً بعلة متوحدة بأول عهد الناس بالإسلام.

ويرشد موقف عبد القادر البغدادي من رواية هذه القصيدة إلى ما أرشد إليه موقف ابن هشام من رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت، إذ أسقط البغدادي ما فحش من هجاء الأعشى فقال: «وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة، ولهذا لم أذكرها كلها»[2].

غير أننا إذا أخذنا بحديث محمد بن مسلمة الذي فرد بالنهي رواية قصيدة الأعشى في هجاء علقمة، فإن القول بالمرحلية يغدو بعيداً عن القبول، منافراً للصواب، إذ حدد الرسول عليه الصلاة والسلام علة النهي بحسن خُلُق علقمة وصدقه بحفظ غيبة رسول الله، فاستحق بذلك شكره وثناءه عليه، بألّا يسمع هذا الطعن الذي ينال من شرف علقمة.

وهذه العلة ذات إطلاق وامتداد، نالها علقمة بكريم خلقه الجاهلي، وزادها إسلامه بعد ذلك تأكيداً وشرعية، فالحماية التي منحها له رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ غيبته وعدم إيذائه بالطعن والهجاء وهو جاهلي كانت محدودة في إطار الفعل والخلق الذي قدمه، في حين أن إسلامه بعد ذلك يهبه حماية أشمل وأعم في

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٢٣٧ وجذعة: شابة فتية.

(٢) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب: ٣/٤٠٠ طـ الخانجي.

ماله وعِرضه، فَيَحْرُمُ سبابه أو ظلمه أو ايذاؤه، «فكل المسلم على المسلم حرام...»، ولما كان سباب المسلم للمسلم فسقاً وقتاله كفراً، فكيف بالكافر يسب مسلماً، ويرميه كذباً ببهتان وافتراء في خلقه وعِرضه؟

إن في القصيدة أذى كبيراً لعلقمة جاهلياً ومسلماً، فهي مما لا تجوز روايته بقصد الظلم والإيذاء، لأن الهجاء سباب متردد، وإيذاء متجدد، فالنهي عن ذلك لا يكون مرحلياً.

ويفضي بنا الأمر في ذلك إلى استشعار تعارض بين علتين، علّة مفهومة مقدّرة، وعلّة منطوقة مقيدة، فبأي العلتين نأخذ؟ وأي الحديثين أصح؟

إن ثمة مؤشرات أدبية قد تزيد من دفع حديث النهي العام عن قصيدتي أمية والأعشى والنهي الخاص عن قصيدة الأعشى في علقمة، من ذلك أن قصيدة الأعشى في هجاء علقمة (شاقتك من قتلة أطلالها) من البحر السريع، وهو بحر نادر في الشعر الجاهلي، بل هو غريب عن شعر الأعشى نفسه، فلم يرد له فيه سوى هذه القصيدة[1].

ولـلأعشى قصيدة أخرى في هجاء علقمة لا تقل عن القصيدة السابقة إيذاءً وانتقاصاً ومطلع هذه القصيدة:

لعمري لئن أمسى من الحي شاخصاً لقد نال خيصاً من غفيرة خائصا

ومن فاحش الهجاء في القصيدة قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وقد أوجع هذا الهجاء علقمة فكان يقول: «قاتله الله أنحن كذلك»، لأن الأعشى جعل البخل عاماً في عشيرة علقمة حين أسند الفعل إلى الجماعة «تبيتون»، وتخير

---

(١) انظر د. محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ١١٢.

الشتاء وقتاً مخصوصاً بالذكر في اتخام بطونهم، لينزع عنهم الإحساس بغيرهم، وليحصر أثرتهم في بطونهم عند العسر واشتداد الجوع فيه، وزاد على ذلك نعتهم بغلظ القلوب وقسوتها حين خصّ النساء بهذا الجوع الذي يحتجن معه إلى العطف والرأفة، ولذلك فهو أهجى بيت قالته العرب عند أبي عمرو بن العلاء[1].

ولشناعة هذا البيت كان عبد الملك بن مروان يقول: «يا بني أمية! أحسابكم أعراضكم، لا تعرضوها على الجهال، فإن الذم باق ما بقي الدهر، والله ما سرني أني هجيت ببيت الأعشى، وأن لي طلاع الأرض ذهباً»[2].

وبالهجاء المقذع بالذم المفاضل بين عامر وعلقمة، الكاشف عن تخلف مرتبة علقمة قبلياً، يقول الأعشى:

فلو كنتم نخلاً لكنتم جرامة ... ولو كنتم نبلاً لكنتم معاقصا[3]
رمى بك في أخراهم تركك العلى ... وفضل أقواماً عليك مراقصا
فعض جديد الأرض إن كنت ساخطاً ... بفيك وأحجار الكلاب الرواهصا[4]

فليست هذه القصيدة بأهون أثراً من سابقتها في إثارة فتنة قبلية، خاصة أن الأعشى في هذه القصيدة يعرج على حكومته المزعومة بين عامر وعلقمة[5].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ورد النهي عن قصيدة دون القصائد المقولة في هذا الأمر؟ ألخصوص المناسبة؟ أم لخصوص بعض المعاني؟ أم أن هذه القصيدة الثانية صناعة متأخرة عن زمن المنافرة غشيها النحل بما غشي قصة المنافرة كاملة.

إن نحلاً يعتري القصيدة من خلال الشك في قصة المنافرة بين عامر وعلقمة، غير أنه شك بلا دليل إلا الخشية والظن بأن العصبية والمنافسة القبلية وراء ذلك.

---

(١) أبو أحمد العسكري: المصون في الأدب ص ١٨.

(٢) الحصري: زهر الآداب ج ٢/١٠٨٨.

(٣) النخل المجروم: المصروم المقطوع، والمعقص: السهم المعوج.

(٤) الرواهص: الحجارة الثابتة.

(٥) انظر الأعشى الكبير: ديوانه ص ١٤٩-١٥١.

يقول الدكتور طه حسين: «وإن شئت أن أحدثك برأيي في صراحة وصدق، فإني أشك شكاً شديداً في أن يكون الأعشى قد مدح عامراً أو مدح علقمة، إنما كانت المنافرة بين هذين الرجلين، واشتدت العصبية حولهما في الإسلام لا في الجاهلية، فحلت هذه العصبية من الشعر في مدح الرجلين وهجائهما شيئاً كثيراً، حمل بعضه على الأعشى، وبعضه على لبيد، وبعضه على الحطيئة، ويكفي أن تقرأ قصة هذه المنافرة في الأغاني لترى أنها قصة قد وضعت ورصعت وزينت على نحو ما كانت ترصع القصص وتزين بالسجع والشعر والغريب، ولا سيما حين تتصل هذه القصص بالإغراب»[1].

وفي هذا الشك قدر من الإصابة بالنظر إلى مرويات صاحب الأغاني في الأخبار والقصص التي لم يقصد فيها إلى صدق أو كذب بل إلى طرافة وإمتاع فحسب، وقدر كبير من مجانبة الصواب في مذهبه إلى أن هذه المنافرة إنما كانت في الإسلام بدءاً واشتداداً لا في الجاهلية، لأنها من غير دليل، فضلاً عن تعارضها مع الأخبار والمرويات الموثوقة.

على أنه يستأنس للشك في قصيدة الأعشى وتضعيف النهي عن روايتها بقصيدة منحولة أخرى للأفوه الأودي جاءت بعض الأخبار بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن روايتها وهو غير صحيح، وقصيدة الأفوه الأودي مطلعها:

إن ترى رأسي فيه قزع وشواتي خلة فيها دوار

«قال القتبي وغيره: من جيد شعر العرب، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إنشادها لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام:

رَيَّثَتْ جُرْهُمُ نبلاً فرمى جرهما منهم فُوَيْقٌ وغرار
يا بني هاجر ساءت خطةٌ أن تروموا النصف منا ونجار»[2]

(١) د. طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ٣٢٨.

(٢) عبد العزيز الميمني: الطرائف الأدبية ص ٣.

وقد كفى الجاحظ الباحثين عناء البحث عن ضعف هذه الرواية، إذ شكك في معاني القصيدة الإسلامية فقال: «وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي:

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فلعمري إنه لجاهلي، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة، وبعد، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهلي، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون، فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة»[1].

مما سبق يتبدى تعاضد الدراية مع الرواية على إضعاف هذا الأسلوب في النهي عن رواية بعض قصائد المشركين دون بعض.

رواية شعر الصراع في عهد الصحابة والتابعين:-

من المأثور عن ابن عباس في هذا المجال قوله: «الشعر ديوان العرب، وهو أول علم العرب، فعليكم بشعر الجاهلية، شعر أهل الحجاز»[2]، وترغب مروية أخرى في شعر الحجاز لأنه عفي عنه إذ يقول: «تعلموا الشعر فإنه أول علم العرب وهو ديوان الأدب وعليكم بشعر الحجاز، فإنه شعر الجاهلية، وقد عفي عنه»[3].

ولا سبيل إلى إنكار تداول هذا الشعر بعد أن انتصر الإسلام على أعدائه من المشركين ودخولهم في دين الله طوعاً أو كرهاً، بيد أن رواية هذا الشعر يجدر النظر إليها وفهم دلالتها من خلال أطر ثلاثة:

أولاً: رغب كثير من المسلمين في تجنب ما قيل من هذا الشعر على الرغم من أن الإسلام عفا عمّا سلف، وعمّا كان يقال من شعر، قصداً إلى جمع الأمة،

---

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٦/ ٢٨٠.

(٢) رواه ابن جرير في منتخب كنز العمال ١/ ٣٠٦.

(٣) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٥٦.

وتمسكاً بوحدتها، وتثبيتاً لمن أسلم بعد الفتح، ودفعاً لإهاجة النفوس والخواطر بإثارة ماضٍ قريب. فقد روى مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسان بن ثابت رضي الله عنه وهو ينشد الشعر في المسجد النبوي، فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: نشدتك الله: أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس، قال: اللهم نعم»[1].

فقد فهم حسان دلالة النهي أو الزجر في لحظ عمر له، فاحتج بأن هذا الشعر أنشده رسول الله صلى الله عليه وسلم فنال رضاه ودعا الله له بالتأييد، لأنه دفاع عنه وعن الإسلام. ويمضي عمر لسبيله على غير رضى عن صنيع حسان؛ لأنه من غير باعث حميد، أو مناسبة مفروضة، ولكنه مع ذلك لا يملك إلا الصمت والتسليم لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأييده لحسان في هذا المجال.

وليس بصائب الافتراض أن من اجتمع إلى حسان في المسجد النبوي كان راضياً عمّا ينشده، بل إن فيهم من يمثله موقف عمر بن الخطاب حين لحظ حسان، ويستأنس لذلك بحديث ضعيف عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «مرَّ الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان بن ثابت ينشدهم من شعره، وهم غير نشاط لما يسمعون، فجلس الزبير معهم وقال: مالي أراكم غير آذني لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيْعَة، فلقد كان يعرض به لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه بشي»[2].

ثانياً: حرص بعض المسلمين على الاحتفاظ به شاهداً تاريخياً في الدعوة الإسلامية، واسلوباً من أساليب الجهاد والدفاع عنها، وكان الأنصار أشد الناس

---

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٦/٤٥ (فضائل حسان).

(٢) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن مصعب الزبيري وهو ضعيف (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٥).

رعاية وحفاظاً على هذا الشعر، إذ كانوا يعلمونه أهل المدينة كما في حديث عمار بن ياسر حين أذن لهم بهجاء المشركين «قولوا لهم كما يقولون لكم» قال: فلقد رأيتنا نعلمه أهل المدينة»[1]، وقال جلاد بن محمد عن موقف الأنصار في هذا المجال: «فأدركته والله، وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه»[2].

ومما لا شك فيه أن الأنصار هم الذين آووا ونصروا وممن جاهدوا في سبيل الله، وحمل شعرهم تعبيراً عن هذه الفضائل، وتجسيداً لهذه المعالم الدعوية، وصاروا مرمى لسهام قريش ومن حالفها، ومحطاً لإقذاع هجائهم. فهم بهذه الأحوال التي اتبعوا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ساعة العسرة ركن مكين في تاريخ الإسلام، نالوا رضى الله عز وجل وأرفع الدرجات عنده: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾[3] ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم﴾[4] ﴿والسابقون السابقون، اولئك المقربون في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين﴾[5].

ثالثاً: التنبيه على كفر كريه قد مضى يجب الندم عليه، والعزم على التوبة منه، وإلزام بحمد الله على ما أنعم به من حال تبدل بإيمان يتجدد، يقول السهيلي عن رواية ذلك: «فما ذكر من هذا على جهة الحكاية نظماً أو نثراً فإنما يقصد به الاعتبار بما مضى، وتذكر نعمة الله تعالى على الهدى، والإنقاذ من العمى»[6]، ومن حسن إسلام المرء وصدق توبته «أن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار» فالعزة والسيادة دائمة لله ولرسوله وللمؤمنين، أما

---

(١) رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني ورجالهم ثقات (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٤).

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٤/١٤١ طـ دار الكتب.

(٣) سورة الأنفال: آية ٧٤.

(٤) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(٥) سورة الواقعة: آية ١٠-١٤.

(٦) السهيلي: الروض الأنف ٥/٧٣.

الكفر فينبغي أن يظل مدحوراً.

روى ابن سلام عن ابن جعدبة قال: «قدم ضرار بن الخطاب الفِهْرِيُّ وعبد الله بن الزِّبَعْرَى المدينة أيام عمر بن الخطاب، فأتيا أبا أحمد بن جحش الأسدي ـ وكان مكفوفاً، وكان مَأْلَفاً يُجْتَمَعُ إليه ويتحدث عنده، ويقول الشعر ـ فقالا له: أتيناك لترسل إلى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره، فإنه كان يقول في الإسلام ونقول في الكفر، فأرسل إليه فجاء، فقال: يا أبا الوليد! أخواك تطربا إليك! ابن الزبعرى وضرار، يذاكرانك ويناشدانك، قال: نعم، إن شئتما فابديا! قالا: نبدأ. فأنشداه، حتى إذا صار كالمرجل يفور، قعدا على رواحلهما. فخرج حسان حتى تلقى عمر بن الخطاب، وتمثل ببيت ذكره ابن جعدبة لا أذكره، فقال عمر: وما ذاك؟ فأخبره خبرهما، قال لا جرم، لا يفوتانك. فأرسل في أثرهما فَرُدَّا. وقال لحسان: أنشدهما، فأنشد حاجته، قال: أكتفيت؟ قال: نعم، قال: شأنكما الآن، إن شئتما فارحلا، وإن شئتما فأقيما»[1].

إن نزوعاً جاهلياً أدركه عمر بن الخطاب في موقف عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب، لأن استرجاع شعر الكفر صدى باطل زاهق في أرجاء عامرة بالحق، فضلاً عن أنه بيان عن عدم صدق التوبة ما دام القلب يجد حلاوة المعصية ويلذ بها. فأراد عمر بصوت حسان وشعره، صوت الحق والإسلام، أن يظل ظاهراً، لا شية فيه، ولا مخالفة لمنهجه. وقدم عمر تفسيراً لموقفه هذا الناسخ لموقف له سابق، منع فيه تناشد ما كان من نقائض الأنصار ومشركي قريش فقال: «إني كنت قد نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً، دفعاً للتضاغن عنكم، وبث القبيح فيما بينكم، فأما إذا أبوا، فاكتبوه واحتفظوا به»[2].

وفي حمى هذا التصور والفهم، فإن من مجانبة الحق، ومجافاة منطق العلم،

---

(١) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) الأصفهاني: الأغاني ٤/ ١٤١.

أن يؤخذ ببعض الروايات السابقة دون بعض آخر؛ لإسقاط أوهام على موقف كل من حسـان وعمر رضي الله عنهما، وأن ينحرف تفسير ذلك عن حقيقة تميّز إيمان هذا الجيل من الصحابة، والتأدب بعدم التسرع في رميهم بالعصبية القبيلية، والانحراف عن جادة الحق.

فقد انحصر جهد من تصدى لهذه القضية فيما جرى بين عمر وحسان وهو ينشد شعره في المسجد النبوي دون غيرها، فيقول طه حسين: «وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدمناه من أن الأنصار كانوا موتورين، وأن عصبيتهم كانت لا تطمئن إلى انصراف الأمر عنهم، فكانوا يتعزون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش، وما كان لهم من البلاء قبل موت النبي، وما أفادوا بأيديهم وألسنتهم من مجد.

وكان عمر قرشياً تكره عصبيته أن تزدرى قريش، وتنكر ما أصابها من هزيمة، وما أشيع عنها من منكر، وكان فوق هذا كله أميراً حازماً يريد أن يضبط أمور الرعية، وأن يؤسس ملك المسلمين على شيء غير العصبية، وقد وفق بعض التوفيق، ولكنه لم يظفر بكل ما كان يريد»[1].

وهذا الفقه متناقض، ينقض آخره أوسطه وأوله، إذ كيف يريد عمر ضبط أمور الرعية وتأسيس ملك المسلمين على غير العصبية، وعمر نفسه كما يزعم صاحب هذا الفقه «كان قرشياً تكره عصبيته أن تزدرى قريش. . .» فكيف بصاحب العصبية والهوى أن يقيم حكماً على غير عصبية؟! وكيف يستقيم هذا المدح والطعن في سياق واحد؟! بل كيف بصـاحب الهـوى والعصبية أن يستأصل شأفتها من غيره، أو يعالج حساناً منها وهو عليل بها؟! إن صاحب الهوى والعصبية لا يملك ألا يكتشف الناس هواه فينصرفوا عنه.

ولست أدري كيف يستقيم هذا الفهم ويرمى عمـر بالعصبية لقـريش في هذا

---

(١) د. طه حسين: في الأدب الجاهلي ص ١٢٠-١٢١.

الموقف، وقد كان بالأمس يحرض حساناً على هجاء هند بنت عتبة بقوله: «يا بن الفريعة: لو سمعت ما تقول هند، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة. . . قال له حسان: ولكن أسمعني بعض قولها أكفيكموها، فأنشد عمر بعض ما قالت، فقال حسان:

أشـرت لكاع وكـان عادتـهـا لؤمـاً إذا أشـرت مع الكفـر[1]»

بل لماذا لم تسكت العصبية عمر عن ملاحقة ابن الزبعرى وضرار حين أنشدا حساناً شعرهما في الجاهلية ومضيا؟ وكان بإمكانه أن يعالج غضب حسان بتذكيره برسوخ إيمانه وحداثة إسلام هذين الشاعرين.

ويمضي باحث آخر لترديد هذا الفهم الذي لا ينزع إلّا عن الوهم ذاته فيقول: «وكـان من آثـار تلك العصبية أن حسـاناً كان يغتنم الفرصة ـ كلما سنحت ـ لإثارة الأحقاد ونبش الماضي في التغني بانتصار الأنصار على القرشيين».

وطاب لهذا الباحث أن يأخذ برواية الأغاني الملفقة دون رواية مسلم الصحيحة فيقول: «حتى إن عمر مر به يوماً وهو ينشد في مسجد الرسول فأخذ بأذنه وقال: «أرغاء كرغاء البعير» وعمر إذ يأخذ بأذن حسان يريد أن يردع فيه هذه النزعة الجاهلية التي تثير أحقاد الماضي»[2].

إن هذا الباحث وجد ضالته في رواية أبي الفرج التي لا تستقيم ولا تليق في أدب التعامل بين سفهاء الناس وضلالهم، ولم يلتفت إلى شعوبية أبي الفرج وأكاذيبه في النيل من تاريخ العرب والمسلمين وتشويه صورتهم، فالفرق شاسع بين رواية مسلم في صحيحه «فلحظ إليه» ورواية أبي الفرج «فأخذ بأذنه وقال أرغاء كرغاء البكر».

ويتجـه باحث آخر بحادثة إنشاد حسان في المسجد اتجاهاً آخر لا يبتعد عن

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٨٧٤.

(٢) د. يحيى الجيوري: الإسلام والشعر ص ١٠٤.

العصبية واتهام الصحابة رضي الله عنهم بإفرازاتها المنتنة فيقول: «ولعل هذا الذي راج بينه وبين عمر حول إنشاد الشعر يكشف عن العواطف الفاترة المتبادلة بين الخليفة والشاعر، وهي عواطف قائمة على الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة منذ وفاة الرسول. ونحن نعرف أن ابن الخطاب وقبله أبا بكر كانا على رأي المهاجرين ومن حزبهم، وإذا عرفنا بعد هذا أن عثمان بن عفان لم يكن يذهب هذا المذهب استطعنا أن نفهم سرّ التجاوب الذي كان بينه وبين حسان، وهو ذلكم التجاوب الذي تمثله الأشعار التي يدعو فيها إلى الأخذ بثأره، وهو تجاوب مذهبي عززته العلاقات الخاصة التي كانت تجمع بينهما على حد ما تذكر كتب السيرة»[1].

ومصادر صاحب هذا الرأي هي مقولات بعض المستشرقين الذين صنعوا من اختلاف آراء الصحابة ـ وهو أمر طبيعي في البشر ـ مذاهب حزبية ذات مآرب دنيوية وعلاقات خصوصية، ولو كلف نفسه أن يأخذ الحقيقة من مصدرها الصادق لوجد الغناء والحق، إذ في كتب السنة أبواب في فضائل الصحابة، زكى فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعثمان وحساناً... وغيرهم، كلاً بما هو أهله، والحديث عن الخلافة الإسلامية ويوم السقيفة له مجال آخر، لكن لا بد من القول إن الإسلام هو المصلحة العليا عند هؤلاء الصحابة، وما كان أحد ليتقدم أبا بكر أو المهاجرين وقد سمع قول رسول الله «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الله»[2] وما قالته عائشة وقد سئلت: «من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلفه، قالت: أبو بكر، فقيل لها ثم مَنْ بعد؟ قالت: عمر، ثم قيل مَنْ بعد؟ قالت: أبو عبيدة»[3].

على أن ما جرى في السقيفة يومئذٍ كان مؤتمراً للتداول في الرأي وليس للخلاف،

---

(١) د. عباس الجراري: من أدب الدعوة الإسلامية ص ٤٧ـ٤٨ وممن ذهب إلى رمي حسان بالنزعة القبلية د. يحيى الجبوري (انظر شعر عبد الله بن الزبعرى ص ١٩).

(٢) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٥/١٥٣.

(٣) رواه مسلم: صحيح مسلم ١٥/١٥٤ وانظر ما بعدها.

والتداول يفرض أن يبدي كل من الأنصار والمهاجرين وجهة نظره في أولوية الترشيح للمبـايعـة الخاصة، ولم يصل أمرها إلى حد الاختلاف، إذ سرعان ما حسم الأمر ببسـاطـة متنـاهية، قال عمـر: «فكثر اللغط، وارتفعت الأصـوات، حتى تخـوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته المهاجرين، ثم بايعته الأنصار»[1] وفي اليوم التالي بايع الناس أبا بكر بيعته العامة بعد بيعة السقيفة.

وهكـذا جانب الباحثون الصواب حين ابتعدوا بحادثة إنشاد حسان عن حقيقة مقصد عمر في نهيه عن ذلك لأن فيه «شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء في الإسلام»[2] من الأخوة والمحبة.

ومن الغرابة حقاً أن يكون هذا الإصرار من الباحثين على تلويث الصحابة الأجلاء بالعصبية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعوها فإنها منتنة»، استكباراً منهم وإنكاراً أن يكون الإسلام قد شغف قلوب هذا الجيل، فأضحى حبه لا يعدله حب الآباء والأبناء والإخوان، إذ يلقى الابن أباه المشرك فيقتله، ولا يتوانى الأخ عن إبلاغ الرسول بفعل أخيه المنكر ليهدر دمه.

على أن توقير الصحابة رضي الله عنهم من الآداب الشرعية التي يجب مراعاتها، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الله الله في أصحابي، لا تتخذونهم غرضـاً بعدي، من أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم.، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[3].

وحفظ الصحـابة والتابعون للأنصار منزلتهم في الإيواء والنصرة، فقد روي أن

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٥١٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٤/١٤٠.

(٣) أخـرجـه أحمد في المسند ٤/٨٧، وأخرجه الترمذي في المناقب باب فيمن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٣٨٦٢. (وقد جاء الحديث من طرق عدة، وهو مع ضعفه يصلح في المواضع التي تأمر بتوقير الصحابة) (انظر عداب الحمش: ثعلبة بن حاطب ص ٦).

يزيد بن معاوية قال لكعب بن جعيل[1]: إن عبد الرحمن بن حسان قد فضحنا، فاهج الأنصار! فقال له كعب: أرادي أنت إلى الشرك! أأهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه؟! ولكني دالك على غلام منا نصراني كافر شاعر، فدله على الأخطل الذي قال:

ذهبت قريش بالمكارم كلها والـلؤم تحت عمائم الأنصار

فلما قال هذا البيت دخل النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال: يا معاوية! أترى لؤماً؟ فقال ما أرى إلاّ كرماً فقال النعمان:

معاوي الا تعطنا الحق تعترف لحي الأزد مسدولاً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة فماذا الذي تجدي عليك الأراقم
فمالي ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنه الدراهم

وفي رواية أن معاوية قال له: أو قال ذلك! قال: نعم، قال لك لسانه»[2].

وازدواجية موقف كعب بن جعيل من الأنصار لا تلغي التزامه بأن هجاء الأنصار شرك أو كفر كما في رواية أخرى «أرادي أنت إلى الكفر بعد الإسلام» أما موقف معاوية فذو دلالة على رعاية شأن الأنصار ومنزلتهم.

وإذا عدنا إلى الأطر الثلاثة السابقة التي يجدر أن تفهم في حدودها رواية شعر الصراع بين مكة والمدينة في هذا العهد، فقد كان طبيعياً أن يروى هذا الشعر بدوافع فردية ومقبولاً في أحوال ليست مطردة، غير أنه من غير الطبيعي ولا المقبول أن يضحى هذا الشعر مادة الغناء والقيان واللهو والشراب، لأنه انحراف برواية هذا الشعر عن مقاصدها الدينيّة، من ذلك القصة التي رواها أبو الفرج الأصفهاني عن الحسين بن

(١) شاعر مفلق قديم في أول الإسلام أقدم من الأخطل والقطامي عدَّه ابن سلام في الطبقة الرابعة ٥٧٢/١.

(٢) ابن سلام: ١/ ٤٦١-٤٦٤ وابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٩٦/٢ والكامل ١/ ١٧٨-١٧٩.

يحيى عن حماد عن أبيه عن بعض القرشيين، أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب دخل عليه معاوية بعد أن وشى بجعفر أحد الناس، فوجد عزة الميلاء بين يديه تغنيه على عودها قصيدة حسان:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسام

قال معاوية بعد أن استطاب شراب العسل المخلوط بالمسك والكافور: «فما هذا الغناء؟ قال: هذا شعر حسان بن ثابت في الحارث بن هشام، قال: فهل تغني بغير هذا؟ قال: نعم الشعر الذي يأتيك به الأعرابي الجافي الأدفر (النتن) القبيح المنظر، فيشافهك به، فتعطيه عليه، وآخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه فأعطيه هذه الحسنة الوجه فترسله بهذا الصوت الحسن... قال معاوية: فما تحريك الرأس؟ قال: أريحيه أجدها إذا سمعت الغناء، لو سئلت عندها لأعطيت، ولو لقيت لأبليت. فقال معاوية: قبح الله قوماً عرضوني لك»[1].

والقصة بادية عوار الكذب والتلفيق، بدءاً براويتها حماد الذي كان غير موثوق الرواية[2]، وقد «سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً»[3] ومروراً بمعاوية الذي تظهره هذه الرواية جاهلاً بالشعر الإسلامي فيسأل عن قصيدة مشهورة لحسان بن ثابت في الحارث بن هشام يعيره فيها بفراره من معركة بدر، ساذجاً يسأل عن ماهية تحريك عبد الله لرأسه في سماع الغناء، وانتهاء بعبد الله ابن شهيد مؤته جعفر بن أبي طالب ومن آل بيت النبوة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبهت خلقي وخُلقي، إذ تقدم هذه القصة عبد الله لاهياً منصرفاً في حياته إلى الغناء، تغنيه عزة الميلاء، وهي ليست مما ملكت يمينه، ويتعالى على الأعراب ويستقذر هيئتهم.

وفي حمى الأُطر الثلاثة السابقة أيضاً غابت رواية شعر المشركين عن الأسماع،

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٤/٢١٢.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٤٨.

(٣) الشريف المرتضي: أمالي المرتضي ١/٩١.

وأضحى نادراً جداً ذكر شعرهم، ولذلك شكك ابن سلام في أن هشام بن عروة كان ينشد قصيدة ابن الزبعرى في يوم أحد التي يقول فيها:

كل بؤس ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكلّ
والعطيات خساس بيننا ... وسواء رمسٌ مشرٍ ومقل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... ضجر الخزرج من وقع الأسل
حين ألقت بقناة بَرْكها ... واستحر القتل في عبد الأشلّ
فقبلنا النصف من سادتهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقال: «وزعم ابن جعدبة أنه سمع هشام بن عروة ينشد هذا الشعر، وسمعته قال: عنه رويته»[1] ولا شك أن الزعم مطية الكذب فيما يقولون، فمن غير الإحسان أن ينشد هذه القصيدة أو يرويها لغير غاية من علم أو دلالة، لأنها ظاهرة التشفي والشماتة بما حلَّ بالمسلمين يوم أحد.

ولغياب شعر المشركين عن التداول والرواية أسباب اختيارية عقدية، إذ أن تغييب هذا الشعر كان مقصوداً من مصدرين أساسين من مصادر الرواية الشعرية:

الأول: شعراء المشركين أنفسهم الذين أسلموا بعد فتح مكة:ـ

فقد حرص الشعراء الذين أسلموا بعد فتح مكة على التخلص من شعرهم الذي كانوا يهجون به المسلمين بإتلافه أو البراءة منه، بل إنهم ودوّا لو لم يكن موجوداً بعد أن عرفوا حقيقة الغواية التي كان الشيطان يملي لهم فيها، ولكن أنى لهم ذلك؟!

حقاً أن شعراء قريش خاصة لم يكونوا ليحجروا على محفوظ الناس من هذا الشعر؛ لأنهم تناقلوه فيما بينهم، وغدا يسير بين القبائل مروياً، إلّا أن تحول الناس من الكفر إلى الإيمان بعد فتح مكة، ساعد الشعراء على التخلص من هذا الهجاء،

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٣٩.

خاصة أن الناس أدركوا في ظل الدين الجديد أن من هذا الهجاء ما هو كفر، ومنه ما هو فسق.

وأحسن بعض هؤلاء الشعراء في انتقاء الوسيلة القادرة على محو شعرهم الجاهلي البغيض من ذاكرة الناس ومحفوظ الرواة، وذلك بإحلال شعر جديد يحمل معالم الشخصيّة المسلمة، بالاعتذار عمّا سلف، والتوبة إلى الله، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعد عبد الله بن الزبعرى شاهداً عدلاً في ذلك، إذ قال عند إسلامه، فمدح النبي واعتذر إليه وأحسن[1]:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أباري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبور
إنني عنك زاجر ثمّ حيا ... من لؤي وكلهم مغرور
أذهب الله ضلة الجهل عنا ... وأتانا الرخاء والميسور

وقال أيضاً[2]:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواقِ بهيم
مما أتاني أن أحمَد لامني ... فيه، فبتُّ كأنني محْمُومُ
يا خير من حَمَلتْ على أوصالها ... عَيْرانةٌ سُرُحُ اليدين رَسومُ
إني لمعتذر إليك من الذي ... أسدَيْتُ إذ أنا في الضلالِ أهيمُ
أيام تأمرني بأغوى خُطَّةٍ ... سَهْمٌ، وتأمُرْني بها مخزومُ
وعليك من أثر المليكِ علامةٌ: ... نورٌ أضاءَ، وخاتَمٌ مختومُ
مضت العداوةُ فانقضت أسبابها ... ودعت أواصر بَيْنَنَا وحُلومُ
فاغفرْ ـ فِدىً لك والداي كلاهما ـ ... ذنبي، فإنك راحمٌ مَرْحومُ

(١) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٢.
(٢) المصدر نفسه ١/٢٤٢.

فابن الزبعرى وهو يعتذر للرسول صلى الله عليه وسلم يصور حالته في الغواية متألماً حين كانت قبيلتا سهم ومخزوم تغويانه وتقودانه إلى تنفيذ خطط الشؤم بالتعرض للرسول وصحبه، ويؤكد إيمانه بصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. أما وقد انقضت أسباب العداوة وحلّ محلها أواصر القرابة والرُّحم فابن الزبعرى طامع بالمغفرة والرحمة عن هذا الزلل الذي أصابه في سابق أيامه.

وفي قصيدة أخرى كان مدار التوبة على هذا الهمّ الذي يعيشه الشاعر مما اقترفه من إثم وعاش فيه من ضلال وعمه، كانت تزينه له بنو جمح وبنو سهم إذ يقول[1]:

سرت الهموم بمنزل السَّهم ... إذ كنَّ بين الجلد والعظمِ
ندماً على ما كان من زللٍ ... إذ كنت في فنن من الإثمِ
حيرانَ يَعْمَهُ في ضلالته ... مستوردا لشرائع الظلمِ
عمه يزينه بنو جُمَحٍ ... وتوازرت فيه بنو سَهْمِ
فاليوم آمن بعد قسوته ... عظمي وآمن بعده لحمي
بمحمدٍ وبما يجيء به ... من سُنَّةِ البرهان والحُكْم

فشاعر هذه المعاني الذي يعلن بألم وحرقة عن توبته عما سبق من جاهلية، ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، حريص على الإكثار من مدائحه ليكفر بها عمّا اجترحه من سيئات وينسخ بها شعره الجاهلي، ويؤكد هذه الكثرة ابن الأثير بقوله معقباً على مدائحه «في أشعار كثيرة يعتذر فيها»[2]، ويفسر ابن عبد البر هذه الكثرة بقوله «وله في مدحه (للنبي) أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره»[3] وقد ضاع هذا الشعر لأسباب اضطرارية أخرى كالحروب والفتن والضياع.

---

(١) د. يحيى الجيوري: شعر عبد الله بن الزبعرى ص ٥١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٥٠.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٣٠٠.

الثاني: رواة الشعر:ـ

وحرصت الرواية الإسلامية على تجاهل شعر المشركين في المسلمين وإسقاطه قصداً واختياراً؛ لأن الرواة تحرجوا من روايته أو رواية بعضه، خاصة ما نال من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، أخذاً بمنهج الإحسان في التأدب معهم، إذ أن «حفظ البيت الواحد مما هجي النبي صلى الله عليه وسلم به، يري قبحه، ولا يتوارى قبحه»[1].

ويوضح السهيلي موقفه وموقف الرواة من هذا اللون من الشعر فيقول: «لكنني لا أعرض لشيء من أشعار الكفرة التي نالوا فيها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا شعر من أسلم وتاب كضرار وابن الزبعرى، وقد كره كثير من أهل العلم فعل ابن اسحاق في إدخاله الشعر الذي نيل فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الناس من اعتذر عنه، قال: حكاية الكفر ليس بكفر، والشعر كلام، ولا فرق بين أن يروى كلام الكفرة ومحاجتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وردهم عليه منثوراً، وبين أن يروى منظوماً، وقد حكى ربنا سبحانه في كتابه العزيز مقالات الأمم لأنبيائها، وما طعنوا به عليهم»[2].

وقد اختلف أهل العلم في قليل ذلك من الأبيات المحدودة المعدودة في البيت والبيتين تروى اضطراراً في الحكاية، أو الاستشهاد في مجال اللغة، انطلاقاً من تأول عائشة رضي الله عنها لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً» في الأشعار التي هجى بها رسول الله، وإنكارها حمله على العموم في جميع الشعر.

ويرى السهيلي أن الإعراض عن هذا الشعر إباحة واختياراً خير من روايته، ولا بأس من رواية البيت والبيتين اضطراراً على الحكاية يقول السهيلي: «وإذا قلنا بما

---

(١) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الأغريض ص ٣٦١.

(٢) السهيلي: الروض الأنف ٥/٧٣.

روي عن عائشة في ذلك فليس في الحديث إلّا عيب امتلاء الجوف منه، وأما رواية اليسير منه على الحكاية أو الاستشهاد على اللغة فلم يدخل في النهي، وقد رد أبو عبيد على من تأول الحديث في الشعر الذي هجي به الإسلام، وقال: رواية نصف بيت من ذلك الشعر حرام، فكيف يخص امتلاء الجوف منه بالذم، وعائشة أعلم، فإن البيت والبيتين والأبيات من تلك الأشعار على جهة الحكاية بمنزلة الكلام المنثور الذي ذموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا فرق. وقول عائشة الذي قدمناه ذكره ابن وهب في جامعه، وعلى القول بالإباحة، فإن النفس تقذّر تلك الأشعار، وتبغضها وقائليها في الله، فالإعراض عنها خير من الخوض فيها والتتبع لمعانيها»[1].

ولا يقف الباحث على شيء من هذا الهجاء، على الرغم من أن دلائل الصراع وعدد الشعراء المشاركين فيه تدل على كثرته، وكل ما بقي من آثاره إشارات في شعر المسلمين، كما في قول كعب بن مالك في هجائه لابن الزبعرى:

تبجست تهجو رسول المليك قاتلك الله جلفاً لعينا

وقول حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وسقط هذا الهجاء أيضاً من المصادر الأدبية والتاريخية ولم يبق إلا وصفه كقول ابن سلام عن شعر هبيرة بن أبي وهب: «وكان شديد العداوة لله ولرسوله، فأخمله الله ودحقه»[2] ويصف الآمدي شعر ابن الزبعرى بأنه: «شاعر مفلق خبيث، كان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه»[3] ويقول ابن سلام في شعر كعب بن

(١) السهيلي: الروض الأنف ٥/٧٤.
(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٧.
(٣) الآمدي: المؤتلف والمختلف ص ١٩٤.

الأشرف: «وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المسلمين»[1].

وما تناقله الرواة من شعر هذا الصراع بين الكفار والمؤمنين إنما هو فيما لا يمس الدين أو العِرض، كالتحريض على المسلمين، أو التشفي بهزيمتهم في أُحد، أو الوعد بالانتقام أو بكاء قتلى المشركين، أو الفخر بالنصر، أو وصف المعارك.

على أن ما بث خلال هذه المعاني من هجاء فاحش أو مقذع قد عفي عليه وطمس بإسقاطه من الرواية، وكان ابن هشام صاحب منهج في هذا المجال إذ أنه يشير إلى الأبيات التي أسقطها كقوله في قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء قتلى بدر: «تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله»[2] وفي قصيدة لابن الزبعرى يرد فيها على أبي بكر، قال ابن هشام: «تركنا منها بيتاً واحداً»[3].

شعر الردَّة:ـ

لم تفرض حروب الردة، وما دار فيها من صراع بين الكفر والإيمان، شعر نقائض كالذي فرضه الصراع بين كفار قريش والمسلمين، وذلك لأسباب متعددة؛ فقد اتسعت المساحة الجغرافية التي جرى فيها هذا الصراع، حيث امتد شمالاً حتى الحمقتين من مشارف الشام، وجنوباً إلى تهامة اليمن وحضرموت، وشرقاً إلى البحرين ودُبا (قصبة من قصبات عمان)، مروراً بأواسط الجزيرة في اليمامة ونجد وبطاحها، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد عقد لها أحد عشر لواءً في مقاتلتها والقضاء عليها[4].

وفقد هذا الاتساع المركزية القبلية التي تقود الصراع وتوجهه، على الرغم من وجود قبائل معدودة في الكثرة والشأن مثل كندة وربيعة وسليم وهوازن وقضاعة ووديعة والحارث، وهذه المركزية نقطة خلاف جوهرية عن الصراع الذي جرى بين كفار

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٨٢.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٧٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٦٣٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٢٥.

العرب بزعامة قريش والمسلمين، إذ كانت هذه الزعامة تحظى بتأييد العرب وقبائلهم، وكان لشعرها الذي أنهضه الصراع سيرورة وشأن بين القبائل، على العكس من شعر الردة الذي ظل محدوداً في أُطر ضيقة من الإقليمية.

ولم تعمر ردة هذه القبائل طويلاً، إذ يسر الله القضاء عليها في سنة واحدة، بل في شهور عشرة من السنة الحادية عشرة للهجرة (١١ - ١٢هـ)، طهر الله بها أرض العرب من الكفر، وأشرقت الأرض بنور ربها.

وكـان لانتشار الإسلام في هذه القبائل أثر في تمكين أعوان للمسلمين فيها، عملوا على وعظ أقوامهم، بدعوتهم إلى الثبات على الإسلام، وتحذيرهم من الردة إلى الكفر، من ذلك قول خويلد بن ربيعة لقومه بني عامر[١]:

أراكـم أنـاسـاً مجمعين على الكفـر ... وأنـتـم غداً نهـب لخيل أبـي بكـر
بنـي عامـر إن تأمـنـوا اليوم خالـداً ... يصبحكم غداً منـه بقـارعـة الـدهـر

ووعظ الضحاك بن سفيان بن الحارث السلمي قومه، وأنشدهم شعراً بيّن لهم منه ما جرّ عليهم زعيمهم الفجاءة السلمي من خزي وعار[٢]:

لقـد جر الـفـجـاءة على سليم ... مخـازي عارهـا في الـدهـر باق

كذلك فعل كثيرون كالحارث بن مرة النفيلي مع قومه بني عامر، وعبد الله بن مالـك الأرحبي مع بني همدان، وعبد الحارث بن أنس الحارثي في أهل نجران، وزفر بن يزيد الأسدي في بني أسد[٣].

وإذا كانت حروب الردة قد فقدت المركزية القبلية التي توحدها، فقد ضل شعر

---

(١) ابن حجر: الإصابة ١/٤٥٧.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٣/١٩٨.

(٣) انظر: د. سامي مكي العاني: دراسات في الأدب الإسلامي ٢٤٦-٢٥١.

الردة أيضاً القضيّة المركزية التي يلتف حولها، ويتمحور عندها، فدارت مضامينه على الفخر بقتل المسلمين، ورثاء من قُتل من المرتدين، والإبانة عن أسباب الردة، ويكاد يخلو هذا الشعر من معارضة الإسلام، أو الانتقاص من مبادئه، أو هجاء أهله، أو تناول الأعراض، أو التعرض للآباء والأمهات إلا ما ندَّ عن ذلك كقول الحطيئة[1]:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لهفتنا ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة ... قوموا ولو كان القيام على الجمر
فدى لبني نصر طريفي وتالدي ... عشية ذادوا بالرماح أبا بكر

ويقول طليحة الأسدي مفتخراً ومتشفياً بقتل ثابت بن أقرم القضاعي[2]:

فما ظنكم بالقوم إذ تقتلونهم ... أليسوا وإنْ لم يسلموا برجالِ
فإن تك أذوادٌ أُحصبن ونسوةٌ ... فلن يذهبوا فَزعاً بقتل حبالِ
نَصَبْتُ لهم صدر الحِمالةِ إنها ... معاودةٌ قيل الكُمَاةِ نَزَالِ
فيوماً تراها في الجلال مصونةً ... ويوماً تراها غير ذاتِ خلال
عَشيَّة غادَرْتُ ابن أَقْرَمَ ثاوياً ... وعُكاشة الغَنَمِيّ عندَ مَجَالِ

ويفترض أن يكون شعر المرتدين كثيراً، قياساً بعدد القبائل التي شاركت في حروب الردة، غير أن ما روته المصادر التاريخية والأدبية قليل؛ الأمر الذي يحمل على الظن بأن جانباً منه طمسه الرواة، إما اكتفاءً ببعضه دون بعض، خاصة أن رواته غالباً من المؤرخين كالطبري والبلاذري والواقدي ممن يؤثر الاستئناس بالشعر في الدلالة التاريخية(*)، وإما إغفالاً له حيث أكثر شعرائه من شعراء البادية المقلين والمغمورين.

---

(١) المبرد: الكامل ١/٣٩٣ وفي الأبيات السابقة لهذه الأبيات هجاء مقذع للقبائل المتمسكة بالإسلام

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/٦٧٦.

(*) في كتاب الردة للواقدي شعر كثير (ط دار الغرب الإسلامي ١٩٩١).

ومهما يكن السبب في قلة هذا الشعر، فإن ما قاله الشعراء المسلمون في هذه الحروب كان يدور حول السخرية من المرتدين وهجائهم بالخزي، ووصمهم بالكفر، وتوعدهم بالقتل، والفخر بالقوة وشدة البأس وتوقع الهزيمة لهم[1]، غير أن هذا الشعر لم يشارك فيه أحد من فحول شعراء الدعوة الإسلامية، إلا ما كان من حسان بن ثابت في أبيات وردت في ديوانه يدافع فيها عن كنية أبي بكر حين كناه المرتدون بأبي الفصيل انتقاصاً من قدره، فقال حسان[2]:

وما البكر إلا كالفصيل وقد ترى ... أن الفصيل عليه ليس بعار
إنا وما حَجَّ الحجيج لبيته ... ركبان مكة معشر الأنصار
نفري جماجمكم بكل مهند ... ضرب القدار مبادي الأيسار
حتى تكنوه بفحل هنيدة ... يحمي الطروقة بازل هدار

وتجدر الإشارة إلى أن شعراء الردة وجدوا في أسماء الحيوان ودلالالتها مجالاً للهجاء بها والتنابز بألقابها، فعمرو بن معد يكرب يهجو حين ارتد فروة بن مسبك وكان والياً على زبيد من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول[3]:

وجدنا ملك فروة شر ملك ... حماراً ساف منخره بشفر
وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحولاء من خبث وغدر

ولما فارق زياد بن عبد الله الغطفاني عيينة بن حصن الذي بايع طليحة بن خويلد في الردة، قال زياد[4]:

---

(١) انظر د. سامي مكي العاني: دراسات في الأدب الإسلامي ص٢٥٦ وشعر المخضرمين ص ٣٠٩-٣١٧.

(٢) حسان بن ثابت: ديوانه ص ٢٠٩-٢١٠. وانظر نقيضة حسان لمحكم بن الطفيل (كتاب الردة ص ١١٥).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٥٨٥.

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/٥٦٣.

أبــلغ عيينــة إن عرضــت لداره قولاً يشــير به الــشـفيق الـنــاصــح
أعــلـمــت أن طليحــة بن خويلد كلبــاً بأكــنــاف الــبــزاخــة نابح
كيف الــبــقــاء إذا أتــاكــم خالــد ومــهــاجــرون مســومــون سوابح

ويظل هذا الشعر بعيداً عن الفحش والقبح الذي رميت به الأمهات، وقذفت به الأعراض، مما دار في شعر نقائض المشركين والمسلمين(١).

ولم يستنهض أبو بكر رضي الله عنه شعراء المسلمين لهذه الحرب ومقولاتها دفاعاً عن الإسلام، خاصة أنه عزم على خنق الردة، وقتل المرتدين، وكانت نظرته إلى شعرها المقول فيها أنه مفتعل لا فاعلية له، ومتعلقه بالغواية، إذ يقول لعمر بن الخطاب لما قال له: يا خليفة رسول الله، تألف الناس، فأخذ بلحيته وقال: يا ابن الخطاب أجباراً في الجاهلية، خواراً في الإسلام، علام أتألفهم؟ أعلى حديث مفترى، أم على شعر مفتعل، قال ابن تيمية: «فذكر الحديث المفترى والشعر المفتعل، كما ذكر الله الأفاكين والشعراء، وكان الإفك في القوة الخبرية، والشعر في القوة العملية الطلبية، فتلك ضلال، وهذه غواية»(٢).

غير أن هذا الشعر المفتعل حكى في جوانب منه صوراً نفسيّة من تشفي المرتدين وحقدهم، ولذلك كان تعزير عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن اهتدى بعد العمى، فقد جاء أبو شجرة السلمي إلى عمر يستحمله(٣)، فقال له عمر: أي عُدَيَّ نفسه، ألست القائل حيث ارتددت:

ورويت رمــحــي من كتيبــة خالــد وإنــي لأرجــو بعــدهــا أن أعــمــرا

(١) روى ابن سلام للأغلب العجلي قصيدة فاحشة في النيل من سجاح لما تزوجت مسيلمة، غير أنه شكك فيها بقوله: «أنه كان يقال إن هذه القصيدة في الجاهلية لجشم بن الخزرج».
انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢/ ٧٤٠-٧٤٣.
(٢) ابن تيمية: الفتاوى ج ٢/ ٤٣.
(٣) يستحمله: يسأله أن يحمله.

وعـارضـتهـا شهبـاء تخـطر بالقنـا ترى البيض في حافـاتهـا والسَّنَـوَّرا

ثم انحنى عليه بالدرة، فسعى إلى ناقته . . . هرباً من الدرة»[1].

لكن عمر بن الخطاب أبدى إعجاباً وتعاطفاً مع مراثي متمم بن نويرة لأخيه مالك الذي قُتل مرتداً، لا لقيمة المرثي أو علو شأنه، وإنما لصدق الراثي في التعبير عن حزنه، إذ يرغب عمر في تحديد مبلغ حزن متمم على مالك فيسأله: «يا متمم! ما بلغ حزنك على مالك؟ فقال: بكيت عليه بعيني الصحيحة حتى أسعدتها بالبكاء عيني العوراء، فقال أمير المؤمنين: هذا نهاية الحزن»[2].

وإنمـا كان مبعث هذا الحزن، وصدق هذا الانفعال، يقين الشاعر النابع من عقيدته، بأن مقتل أخيه أرداه إلى النار، ولذلك تجده يحدد باعث ألمه وحزنه في رده على طلب عمر بن الخطاب في رثاء أخيه زيد: «لوددت لو أنك رثيت زيداً أخي بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك! فقال متمم: «يا أبا حفص! والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزّاني أحد عن أخي بمثل تعزيته»[3].

ولا ينازع في قيمة هذه المراثي أنها مقولة في مرتد مات كافراً؛ لأن متمم بن نويرة أكد في مراثيه أمرين حفظ فيهما للإسلام حضوراً وتوجيهاً:

أولهما: أنه دفن شعور السخط وانفعال عدم الرضى عن قتل أخيه، ليحيى بدلاً منه ويسوِّد في مراثيه مجموعاً من المشاعر النبيلة كالحزن والألم الممزوج بالصبر والتعزي عن الموت بالإيمان الصادق بأنه حق لا مدفع له، وذلك كلما غلبه

---

(١) المبرد: الكامل ١/٣٨٨.

(٢) الخـالـديان: الأشباه والنظائر ٢/٣٤٦ وأشار المبرد إلى صدق متمم وحسن كلامه في بعض المقاطع (انظر التعازي والمراثي ص ١٥).

(٣) المبرد: التعازي والمراثي: ٢٠-٢١ وانظر: الشعر والشعراء ١/٣٣٨ وطبقات فحول الشعراء ١/٢٠٩، وقد قدم ابن سلام لهذه المقولة بقوله: «ومن أحسن ما سمعت من عذر خالد» حيث يفيد ذلك أن متمماً متيقن من أن مالكاً مات كافراً مرتداً.

البكاء في استرجاع ذكرياته[1]:

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
. . . وغيرني ما غال قيساً ومالكاً وعمراً وجزءاً بالمشقر ألمعا
وما غال ندماني يزيد، وليتني تمليته بالأهل والمال أجمعا
فقصرك إني قد شهدت فلم أجد بكفي عنهم للمنية مدفعا

وبالود الصادق، والحب الغامر، ظلل متمم علاقته بأخيه في القصيدة:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
. . . فوالله ما أسقي البلاد لحبها ولكنني أسقي الحبيب المودعا

وبين هذا الحب الغامر والحزن الذي يهفو بصبره، أبدى متمم توازناً منضبطاً بالاعتدال الإسلامي في اختلاف الأحوال، وتباين الإنفعال، فلا الفرح يبطره، ولا ألم المصيبة يكسره:

فلا فرحاً إن كنت يوماً بغبطة ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا

على الرغم من عظم مصابه بأخيه الذي لو رزئت به الجبال لتضعضعت به:

فلو أن ما ألقى يصيب متالعاً أو الركن من سلمى إذاً لتضعضعا
وما وجد أظآر ثلاث روائمٍ أصبن مَجَرَّاً من حوار ومصرعا
. . . بأوجد مني يوم قام بمالكٍ منادٍ يصير بالفراق فأسمعا

وبالتذكير بأن الأيام دول، وأن الموت لا منجاة لأحد منه، استوعب متمم إحساس الشماتة الذي أبداه المُحِلُّ بن قدامة بموت مالك:

فلا تفرحن يوماً بنفسك إنني أرى الموت وقاعاً على من تشجعا

---

(١) اقتصرت في الأمثلة والتحليل على الميميّة، لأنها أشهر هذه المراثي وأجودها عند أهل النقد.

وبطمأنينة الموقن بأن الموت حق، رفض متمم التحريض الباعث على الانتقام لقتل أخيه:

فقصـرك أني قد شهـدت فلم أجـد بكـفـي عنـهـم للمـنـية مدفعـا[1]

وبذلك كان استقرار العقيدة في قلب متمم بن نويرة، وامتلاء نفسه بها، باعثاً لمشاعره النبيلة، وضابطاً لأحاسيسه المتصارعة بين السخط والرضى، ومقياساً احتوى به ميوله وغرائز نفسه باعتدال وطمأنينة.

ثانيهما: واقعية التصوير لشخصيّة المرثي، إذ لم يزوِّر متمم شخصيّة مالك أخيه؛ لتبدو مثالية لا وجود لها، أو كاملة لا نقص فيها، ولا حاد عمّا يشينه في نظرة الإسلام بالتبرير والاعتذار، نزوعاً به إلى التسامي. فقد نوه بمآثر أخيه في الإيثار والجود في الشدائد والأزمات، وغلبة الخصوم، وجلده في الحرب وإقدامه ووفائه:

لبـيب أعـان الـلب منـه سمـاحـة خصيب إذا ما راكب الجـدب أوضعـا
ويومـاً إذا كظك الـخـصـم إن يكـن نصـيرك منـهـم لا تكـن أنت أضيعـا
وإن ضرس الغـزو الـرجـال رأيته أخـا الحـرب صدقاً في اللقاء سميدعا
ومـا كان وقـافـاً إذا الخيل أحجمت ولا طائـشـاً عنـد الـلقـاء مُدفـعـا
أبـى الـصـبـر آيات أراهـا وإنـني أرى كل حبـل بعـد حبلك أقـطعـا[2]

وبكى متمم خصلتين في خُلُق مالـك، على الـرغم من رفض الإسلام لهما، وهما: أنسه بمجالس الميسر، وتهذيبه في شرب الخمر ومعاقرتها:

(١) قال أبو جعفر أحمد بن الحسين الملقب محمد يس في معنى البيت: «أقلي واقصري فإني لم أقدر أن أغالب الأمير خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولو أمكنني لفعلته» (شرح ديوان المفضليات ص ٥٤١) ويقول التبرزي وهو الأصوب: «إنني جاهدت فلم أجد إلى الدفاع عنه، والذب دونه سبيلا» (شرح المفضليات ٢/٩٦٦).

(٢) معنى قوله: «بعد حبلك أقطعا» أي قد ذهب الوفاء من الناس (شرح المفضليات ص ٥٣٤).

ولا برمـاً[1] تهـدي النسـاء لعـرسـه إذا القشـع من حس الشتـاء تقعقعـا
وإن تلقـه في الشـرب لا تلق فاحشـاً على الـكـأس ذا قاذورة متـزبـعـا
ولـلشـرب[2] فابـكي مالكـاً ولبهمـة شديد نواحـيه على من تشـجـعـا

لأن متمم بن نويرة يرثي بصدق وواقعية صورة مالك الجاهلية التي يجد لأكثر جوانبها الخيّرة صدى فيما أقرَّ الإسلام من مكارم الأخلاق، ولذلك فهو قانع بمحامد أخيه المودع، راغب في إحسان الظن به، ولذلك فهو يقول:

فإن تكـن الأيام فرّقـن بينـنـا فقـد بان محمـوداً أخي حين ودّعـا

وهذا الصدق الذي شمل القصيدة إحساساً ومدحاً ورثاءً كان وراء سؤال عمر بن الخطاب له: سألتك الله يا متمم هل كان أخوك على ما تصفه في شِعرك؟ قال: اللهم نعم، إلا أني قلت في بعض ذلك:

فتى غير مبطان العشيات أروعا

وقد كانت له بطن حادره»[3].

ويقال إن مالك بن نويرة كان ذا بطن، وإنما أراد أنه كان لا يأكل آخر نهاره انتظاراً للأضياف، وقال بعضهم: المبطان هو الذي يغيب بالعشيات عن الناس في الشرب ويتبع الريب[4].

---

(١) قال أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري: «البرم: الذي لا يأخذ في الجزور نصيباً، أي ليس من الأيسار، والمعنى يريد أن مالكاً ييسر في وقت الجدب... وقال: البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر» شرح المفضليات ص ٥٢٨.

(٢) قال أبو محمد الأنباري: «وللشرب: يريد فابكي مالكاً للشرب لأنه كان يسقيهم ويرفدهم وينحر لهم، والبهمة: مائة فارس؛ أي أنه كان يقوم مقامهم» (شرح المفضليات ص ٥٣١).

(٣) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢/٣٤٦.

(٤) الخطابي: غريب الحديث ١/ ٣٠٢-٣٠٣.

وحظيت مراثي متمم بن نويرة لذلك كله بتداول رواة الشعر[1] في مصنفاتهم، فالمبرد وإن عدّ قصيدة متمم العينية من «مراثي الجاهلية المشهورة المستحسنة المستجاده المقدمة» فقد تخيّر منها مقطعات وصفها بأنها من حر الكلام وصادق المدح[2]. وقال ابن سلّام: وبكى متمم مالكاً فأكثر وأجاد، والمقدمة منهن قوله: (لعمري وما دهري بتأبين هالك. . .)[3].

وروى الخالديان من هذه المراثي اليسير اجتناباً للتطويل، فقد جاء في الأشباه والنظائر: «ومراثي متمم في مالك كثيرة، وإنما أتينا باليسير اجتناباً للتطويل»[4] ومن هذه المراثي ما عدّه النقاد أرثى بيت قالته العرب[5].

مما سبق ننتهي إلى القول: إن الصدق بجانبيه الفني والخلقي، والواقعية في التصور والتصوير، من لوازم التعطف الإسلامي على فن القول وقبوله ورفع درجته وقيمته رواية ونقداً.

---

(١) يقال إن عائشة رضي الله عنها تمثلت بميميّة متمم حين وقفت على قبر أخيها عبدالرحمن حين دفن بمكة (معجم الشعراء ص ٤٣٣).

(٢) المبرد: كتاب التعازي والمراثي ص ١٣.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٠٩.

(٤) الخالديان: الأشباه والنظائر ٢/٣٥٠.

(٥) النويري: نهاية الأرب ٥/١٧٩.